النص3: الأنتروبولوجيا الاجتماعية دراسة للبنية الاجتماعية

" أعرف الأنتروبولوجيا الاجتماعية بأنها دراسة المجتمع الإنساني: إنها تدرس الظواهر الاجتماعية بمناهج مماثلة لتلك المستعملة في العلوم الفيزيائية والبيولوجية، ويمكن أن نسميها إذا أردنا أيضا "علم اجتماع مقارن" وبعضهم يعرفها على أنها دراسة للثقافة. اعتقد أن الاختلاف في التعريف ليس له أهمية كبيرة. إن هذا التعريف يقود في الواقع إلى نمطين من البحث يعبران عن المشكلات نفسها، بطريقة مختلفة كليا.

كتعريف أولي للظواهر الاجتماعية، يمكننا القول أن علاقات الاشتراك بين الكائنات الحية الفردية تؤلف موضوع أبحاثنا، في خلية نحل توجد علاقات بين الملكة والعاملات والزنابير. وهناك اشتراك أيضا بين حيوانات القطيع، وبين القطة وصغارها. هنا نكون أمام ظواهر اجتماعية، لا اعتقد أنه باستطاعتنا تسميتها ظواهر ثقافية. وحدها الكائنات البشرية تنال اهتمام الأنتروبولوجيا. والأنتروبولوجيا الاجتماعية تدرس في نظري أشكال الاجتماع الملاحظة لدى الكائنات البشرية.

ما هي الوقائع الملموسة التي يمكن للأنتروبولوجيا الاجتماعية ملاحظتها؟ إذا كنا مثلا ندرس سكان الأبوريجان بمنطقة من أستراليا، فنحن نتعامل مع أفراد في بيئة محددة محددة، فنلاحظ سلوكياتهم التي تتضمن أفعالهم اللغوية والنتاجات المادية لأفعالهم الماضية. إننا لا نلاحظ "ثقافة" باعتبار أن هذه الكلمة لا تشير إلى حقيقة ملموسة، بقدر ما هي تجريد غامض، لكن الملاحظة المباشرة تكشف بأن تلك الكائنات البشرية تشترك بواسطة شبكة معقدة من العلاقات الموجودة في الواقع.

فهذه البنية هي التي تكون موضوع بحث، لن يكون لعلم النفس بالتأكيد، بل للأنتروبولوجيا الاجتماعية.

هذا لا يعني أن دراسة البنية الاجتماعية تكون كل الأنتروبولوجيا الاجتماعية، ولكنها فقط القسم الأكثر أساسيا لهذا العلم."

راد كليف براون

Structure et fonction dans la société primitive, Editions de minuit, Paris,1968, pp: 290-291.

أ–التعريف بالكاتب:

ولد رادكليف–براون Alfred Reginold Radcliffe-Brown في برمينغهام عام 1881 وتابع دراسته في كلية ترينيني في كمبريدرج حيث حصل على شهادة علوم الأخلاق والفكر عام 1905. أقام في جزر أندمان من عام 1906 وحتى العام 1908 حيث قام بواحد من أوائل التحقيقات الميدانية الطويلة الأمد، وذلك بفضل تشجيع كل من ريفرز وهادون. لدى عودته قام بتدريس علم الاجتماع المقارن والإتنولوجيا في كمبريدرج ومن ثم في لندن، وبعدها غادر من جديد إلى استراليا الغربية التي أقام فيها من العام 1910 وحتى 1913. لدا عودته إلى انجلترا ألقى سلسلة من المحاضرات في الأنتروبولوجيا الاجتماعية، مستخدما بذلك عنوانا اعتمد خصيصا لكرسي فريزر الجامعي في ليفربول عام 1908. بعد تزوده بخبرات جديدة عاد إلى أستراليا عام 1916 وأصبح مديرًا للتربية في تونغا حتى عام 1918. غادر بعدها إلى إفريقيا الجنوبية لكي يتبوأ كرسي الأنتروبولوجيا الاجتماعية في جامعة الكاب حيث أنشأ مدرسة الحياة واللغات الإفريقية. شغل في السنوات التالية منصب أستاذ في جامعات سيدني (1926– 1931) حيث أنشأ مجلة "أوقيانيا" وشيكاغو وينشينغ في الصين (1931– 1937) وبعدها درس في أوكسفورد من العام 1937 حتى 1946، ولكنه كان قد غادر لمدة سنتين خلال الحرب يخدم كعسكري في البرازيل (ساوباولو) وتابع إلى ما بعد سن التقاعد التدريس في الإسكندرية (1947– 1949) وغراهام ستاون (1951– 1954) وما نشستر ولندن.

نال بفضل شهرته الواسعة عددًا من التكريمات الأكاديمية والمهنية، منها رئاسة المؤسسة الملكية للأنتروبولوجيا وجمعية الأنتروبولوجيين الاجتماعيين البريطانيين، ووضع كل ذلك في خدمة نشر هذا العلم. توفى في لندن عام 1955. ولكنه كان منذ وفاة مالينوفسكي عام 1942 قد أصبح عميدًا دون منازع للأنتروبولوجيا الاجتماعية البريطانية. من أهم أعماله الدراستين الأحاديتين "جزر الأندمان" (1922)، و "التنظيم الاجتماعي للقبائل الأسترالية" (1931)، وله العديد من المقالات المجموعة في "بنية ووظيفة المجتمع البدائي" عام (1952)، و " منهجية الأنتروبولوجيا الاجتماعية" (1958)[1].

ب–فهم النص

1–تفكيك النص

[1]- بيار بونت وميشال إيزار، **مرجع سابق**، ص 496-497.

–تعريف الأنتروبولوجيا الاجتماعية على أنها دراسة المجتمع الإنساني أي الظواهر الاجتماعية باعتماد نفس مناهج العلوم الطبيعية (الفيزياء والبيولوجيا) ويمكن تسميتها بعلم اجتماع مقارن. في الوقت الذي يعرفها آخرون بأنها دراسة الثقافة. وبالتالي دراسة المشكلات نفسها بطريقة مختلفة كليا.

–الظواهر الاجتماعية هي العلاقات الاجتماعية التي توجد لدى الإنسان كما الحيوان. ولذلك فلا يمكن تسميتها ظواهر ثقافية لكن الأنتروبولوجيا تدرس العلاقات البشرية.

–العلاقات الاجتماعية تمثل الوقائع الملموسة التي يمكن للأنتروبولوجيا الاجتماعية ملاحظتها. أما الثقافة فهي ليست حقيقة ملموسة وإنما هي تجريد غامض.

–موضوع الأنتروبولوجيا إذن هو البنية الاجتماعية التي تكون قسما من الأنتروبولوجيا الاجتماعية وليس كلها.

2–الكلمات المفتاحية: الأنتروبولوجيا الاجتماعية– البنية الاجتماعية.

3–الفكرة العامة: موضوع الأنتروبولوجيا الاجتماعية هو العلاقات الاجتماعية التي تكون البنية الاجتماعية.

4–الأشكال: ما هو موضوع الأنتروبولوجيا الاجتماعية؟

ج–المقالة

1)–تشكلت الأنتروبولوجيا كعلم اجتماعي قائم الذات بعد توفر الشروط الإبستمولوجية المتمثلة في تبلور الموضوع والمنهج، متميزة عن بقية العلوم الاجتماعية الأخرى. لكن الملاحظة الأولية هي اختلاف الأنتروبولوجيين أنفسهم في تحديد موضوعهم وإن كان الكائن البشري هو القاسم المشترك بينهم جميعا، لكن من أي زاوية؟ هذا ما أدى إلى تعدد وجهات النظر. ورادكليف– براون المنتمي إلى التقليد البريطاني والمنسوب إلى الوظيفية البنائية يحاول أن يجيب على الأشكال التالي: ما هو موضوع الأنتروبولوجيا الاجتماعية؟

2)–يرى رادكليف– براون أن موضوع الأنتروبولوجيا الاجتماعية هو البنية الاجتماعية التي تشكل شبكة العلاقات الاجتماعية.

3)–ينطلق الكاتب من أن الأنتروبولوجيا الاجتماعية تدرس المجتمع الإنساني أي الظواهر الاجتماعية

وبمناهج العلوم الطبيعية (الفيزياء والبيولوجيا) هي علم طبيعي ويسميها علم اجتماع مقارن ويستبعد مفهوم الثقافة الذي جعله بعضهم (مالينوفسكي) موضوعا لها. ويترتب عن ذلك أننا أمام طريقتين مختلفتين من البحث لنفس المشكلات.

ثم يعرف الظواهر الاجتماعية بأنها شبكة العلاقات الاجتماعية التي توجد لدى الحيوانات أيضا ومن ثم يبرهن على أن الأمر لا يتعلق بالثقافة إذ لو كانت تلك العلاقات تسمى ثقافة لكان للحيوان ثقافة أيضا. ولكن الأنتروبولوجيا الاجتماعية تدرس العلاقات بين الكائنات البشرية.

ويتساءل بعد ذلك راد كليف- براون عن الوقائع التي يمكن ملاحظتها إذ الأمر يتعلق بالملاحظة كخطوة أولى من المنهج التجريبي في العلوم الطبيعية، ويجيب بأن العلاقات الاجتماعية وحدها القابلة للملاحظة وليس الثقافة التي يعتبرها تجريدًا غامضا.

وينتهي الكاتب إلى أن موضوع الأنتروبولوجيا الاجتماعية هو البنية الاجتماعية التي هي قسم من هذا العلم وليس كله.

ويمكن أن نضع استدلال الكاتب في القضايا التالية: الأنتروبولوجيا الاجتماعية تدرس العلاقات الاجتماعية.

-العلاقات الاجتماعية توجد لدى الحيوان والإنسان معا.

-العلاقات الاجتماعية قابلة للملاحظة وتشكل البنية الاجتماعية.

-الأنتروبولوجيا الاجتماعية علم طبيعي يستخدم نفس مناهج العلوم الطبيعية.

4)- لكن على أي أساس تقوم هذه النظرة إلى موضوع ومنهج الأنتروبولوجيا الاجتماعية؟

أولا يجب أن نلاحظ أن راد كليف- براون يعبر عن التقليد الأنجلوساكسوني الذي يضيف كلمة اجتماعية للأنتروبولوجيا فيم يسميها الأمريكيون بالأنتروبولوجيا الثقافية. وثانيا إن رادكليف- براون ينطلق من نزعته الوظيفية البنائية التي ترى بأن الأنتروبولوجيا تدرس الأبنية المجتمعية. وبسبب تأثره بالمدرسة الوضعية التي كانت سائدة في بداية القرن العشرين اعتقد رادكليف- براون مثل دوركايم بقدرة العلوم الاجتماعية على إنتاج قوانين ذات صفة جامعة.

والقول بالبنية كموضوع للأنتروبولوجيا يجعل وظيفية رادكليف- براون تختلف عن وظيفية مالينوفسكي. فهي وظيفية بنائية لأنها تقوم على مفهوم البنية التي تتحدد بعلاقات مجتمعية. وقد تتصل هذه العلاقات

بالأفراد (بينفردية) وبالجماعات. ثم إن هذه العلاقات محكومة بالتمايز المجتمعي أي بتمايز الأفراد والطبقات من حيث الأدوار المجتمعية التي يقومون بها. وأخيرا إن هذه العلاقات تتصف يضرب من الاستمرار من حيث المكان والزمان. فهي ليست ظرفية طارئة أو عابرة.

والبنية عند رادكليف- براون واقع كياني ملموس، أي أنها موجودة بالفعل وخاضعة للملاحظة المباشرة وهذا ما يميزها عن كيان آخر أكثر تجريدًا يسميه الشكل البنياني، يقول رادكليف براون: "إن الجسم المتعضي يحدد بنيته باستمرار طيلة حياته. وكذلك الأمر بالنسبة لحياة المجتمع. هكذا تتغير العلاقات الفعلية بين الأشخاص والجماعات من عام إلى عام أو من يوم إلى يوم. فيدخل في عداد الطائفة الواحدة أعضاء جدد بفضل ولادتهم أو انتمائهم إليها، ويخرج منها أعضاء بفعل موتهم أو اغترابهم. كما أن هناك زواجات وطلاقات. ولكن في حين أن البنية الفعلية تتغير يستطيع الشكل البنياني العام أن يظل ثابتا إلى حد ما".

ومفهوم البنية عند رادكليف- براون يختلف عن مفهومها لدى ليفي- ستروس. إنها عند الأول واقع ملموس قابل للمعاينة، انطلاقا من تحليل العلاقات المجتمعية، أما الثاني فقد جعل منها بالعكس، نموذجا لا يخضع للمعاينة، ولا هو تجريبي بل إنه يبنى انطلاق من العلاقات التي يعاينها الباحث. فهي إذن من إبداع الباحث.

ولكن هل يمكن حقا تطبيق نفس مناهج العلوم الطبيعية في دراسة موضوع الأنتروبولوجيا الاجتماعية كما يعتقد رادكليف- براون؟

في الواقع هذه قضية إبستمولوجية اختلف حولها المفكرون والعلماء والفلاسفة فأنصار المذهب الطبيعي المنهجي في العلوم الاجتماعية يذهبون إلى إمكانية تطبيق منهج العلوم الطبيعية في تلك العلوم. ولكن أنصار المذهب التاريخاني كما يسميه كارل بوبر في كتابه بؤس الأيديولوجيا فيزعمون أن المناهج التي تتميز بها العلوم الطبيعية لا يمكن تطبيقها على العلوم الاجتماعية لما يوجد من فوارق عميقة بين هذه العلوم والعلوم الطبيعية. فالعلوم الطبيعية تستخدم منهج التجربة أي أنها تتوسل إلى عزل الظواهر الطبيعية صناعيا والتحكم فيها حتى تتوصل إلى تحقيق الظروف المتماثلة مرة بعد أخرى. وما يترتب على هذه الظروف من نتائج معنية. وواضح أن هذا المنهج يعتمد على الفكرة القائلة بأن الأمور المتماثلة تحدث في الظروف المتماثلة. والذي يدعيه صاحب المذهب التاريخاني هو أن هذا المنهج يمتنع تطبقه في علم الاجتماع. وحتى إن أمكن تطبيقه فهو في رأيه منهج عديم النفع لأنه ما دامت الظروف المتماثلة لا تتحقق إلا في حدود

الفترة التاريخية الواحدة فلن يكون لأية تجربة نجريها إلا دلالة محدودة جدا. وفضلا عن ذلك فإن عزل الظواهر الاجتماعية صناعيا من شأنه أن يستعيد العوامل التي لها الأهمية العظمى في علم الاجتماع[2].

ويحتج التاريخيانيون كذلك باستحالة إجراء التجارب المفيدة حقا في العلوم الاجتماعية. فإن التجارب الاجتماعية الواسعة النطاق ليست تجارب بالمعنى الفيزيقي. إذ ليس الغرض منها العمل على تقدم المعرفة من حيث هي كذلك. بل يقصد بها تحقيق النصر السياسي، وهذه التجارب لا تجري في المعمل بمعزل عن العالم الخارجي، بل الأحرى أن نقول إن إجراءها يغير الظروف الاجتماعية نفسها. وليس من الممكن تكرارها في ظروف مماثلة، من حيث إن الظروف تغيرت نتيجة لإجرائها في المرة الأولى.

وثمة عائق آخر يحول دون تطبيق مناهج علوم الطبيعة في الأنتروبولوجيا أو العلوم الاجتماعية بصفة عامة، ويتعلق بالتعقيد الذي هو راجع إلى أن الحياة الاجتماعية ظاهرة طبيعية تفترض الحياة النفسية للأفراد، أي علم النفس، وهذا بدوره يفترض علم الحياة الذي يفترض هو الآخر علمي الكيمياء والفيزيقا. وهذا دليل على مبلغ التعقيد الهائل في الحياة الاجتماعية.

حجة أخرى يقدمها أنصار المذهب التاريخاني وتتعلق بالتكميم، فإذا كانت العلوم الطبيعية تقوم على الترييض، أي صياغة قوانينها في شكل معادلات وأرقام فإن العلوم الاجتماعية يغلب عليها الطابع الكيفي، وقد أمكن تطبيق المناهج الكمية والرياضية فعلا وبنجاح في العلوم الاجتماعية ولكن التاريخاني يقول لا يزال هناك فرق هائل بين الطرق الإحصائية المتبعة في العلوم الاجتماعية والمناهج الكمية والرياضية في علم الطبيعة. وليس يوجد في العلوم الاجتماعية شيء يمكن مقارنته بالقوانين العلمية ذات الصيغة الرياضية في علم الطبيعة.

والقول بأن البنية الاجتماعية هي موضوع الأنتروبولوجيا يترتب عنه أن البنية تزامنية ومن هنا استبعاد التاريخ ودراسة المجتمعات في وضعها الحالي ويؤدي هذا إلى إغفال الجانب الدينامي أي جانب الصراع والتغير داخل المجتمع.

5)-وفي الختام لقد أراد رادكليف- براون بنزعته الوظيفية البنائية أن يقرب الأنتروبولوجيا الاجتماعية من العلوم الطبيعية واصطناع مناهجها للوصول إلى القوانين العامة. ونحن لا ننكر المحاولات الرائدة للعلوم الاجتماعية بشكل عام والأنتروبولوجيا بشكل خاص من أجل الاقتراب قدر الإمكان من دقة العلوم

---

[2]- كارل بوبر، **بؤس الأيديولوجيا**، ترجمة عبد الاحميد صبره، دار الساقي' بيروت، ط1، 1992، ص 20.

الطبيعية. وإذا كانت العلوم الاجتماعية لا تطبق مناهج العلوم الطبيعية بحذافيرها فهي تكيفها حسب موضوعها. فالمقارنة مثلا تنوب عن التجربة ولذلك يسمي رادكليف- براون الأنتروبولوجيا بعلم اجتماع مقارن.